الاغتراب في روايات علي الحديثي

عمار يوسف عبد الحسن/ كلية التربية/ جامعة/ سامراء

نشأت جعفر عبد الحسن/ المديرية العامة لتربية صلاح الدين

الملخص:

الاغتراب ظاهرة بشرية متأصّلة في النفس الإنسانية نابعة من ذات الإنسان، ومركزها الذات الإنسانية والتي تحدّد مدى التقارب أو التنافر بينها وبين الإنسان ونفسه أو جنسه لوجود قوة ترابطية بينهما، وأفضل من يجسدها فنياً هو المبدع أو الفنان، ووجودها نسبي يختلف من مبدع لآخر، وهي في حركة مستمرة تتغذى من الظروف المحيطة به، إذ تشكل عقبة تعيق إنتاجه الفني وفكره، يتناول هذا البحث ظاهرة لها دلالات داخلية ثقافية، اجتماعية، وخارجية سياسية ، مادية ، اقتصادية ، دينية، والتي نالت اهتمام الكثير من النقاد والدارسين لارتباطها بواقع الإنسان العربي أولاً والأديب العراقي ثانياً، وفي روايات الروائي العراقي علي الحديثي، الذي عاش في كنفها وأسلم نفسه لمشاكل الحياة، لينتهي به المطاف إلى الاغتراب بكافة انواعه، وهو من الروائيين المنسيين الذين لم تسلط الأضواء عليهم ولهم بصمة في الرواية العراقية، كتب العديد من الروايات والتي تركت أثراً في نفوس القراء، ولعدم دراسة ظاهرة الاغتراب في رواياته قررت ان أتناولها في بحثي هذا الاغتراب الداخلي في المبحث الأول، والاغتراب الخارجي في المبحث الثاني، وأخرج بخاتمة ملخصاً فيها أهم النتائج.

الكلمات المفتاحية: (الاغتراب، روايات علي الحديثي).

Alienation in Ali Al-Hadith's Novels

Ammar Yousef Abdelhassan

Faculty of Education, Samarra University

Nashat Jaafar Abdulhassan

Salahuddin Education Directorate

Abstract:

Alienation is a human phenomenon inherent in the human psyche, stemming from the human self, and its center is the human self, which determines the extent of convergence or dissonance between it and the human being and his or her self or gender because there is an interconnected force between them, and the best person to embody it artistically is the creator or artist, and its relative existence varies from one creator to

another, and it is in constant movement that feeds on the surrounding circumstances, as it constitutes an obstacle that hinders his artistic production and thought, this research addresses a phenomenon that has internal cultural social and external political, physical, economic, religious connotations, which has received attention from many critics and scholars due to its connection to the reality of the Arab human being in the first place and the Iraqi writer in the second place. In the novels of the Iraqi novelist Ali al-Hadithi, who lived in it and surrendered himself to the troubles of life, to end up in alienation of all kinds, and he is one of the forgotten novelists who did not shed light on them and have an imprint in the Iraqi novel, he wrote many novels that left an impact on readers, and because the phenomenon of alienation in his novels was not studied, I decided to address it in my research this internal alienation in the first paper, and external alienation in the second paper, and conclude with a conclusion summarizing the most important results.

Keywords: (Alienation, Ali Al-Hadith's novels).

المقدمة:

بعد الثورة العلمية التي اجتاحت العالم ومدى التطور الكبير الذي حصل فيه، تحول الغرب إلى مجتمع صناعي يعتمد على النظام الرأسمالي ومن أهم أفكاره سلب الحريات، ظهرت الكثير من المدارس الأدبية التي تبحث في مفهوم الاغتراب وسرعة تطوره ومحاولة وضع الخطط لمعالجته عبر المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، وكان لابد للمجتمع العربي أن يشارك في هذا التطور، وما فيه من تغير في الجانب الفني الذي تأثر تأثيراً كبيراً وماهية المشكلات التي عرقلت مواكبة العالم لاختلاف الثقافات فلم يستطع أن يوافق بين البيئة المنتجة لهذا التطور وبيئته، مما جعله يعيش في صراعات سياسية واجتماعية ونفسية، تولّد عنها اغتراب نفسي وفكري لاختلاف الثقافات الغربية والشرقية، لمحاولته تطبيق الأفكار والمنطلقات الغربية ومواكبة التطور فكريا وفنيا لأنّ "انفتاح الواقع العربي على الفكر الليبرالي الغربي يعد أحد العوامل التي أثرت في انطلاق حركة تطور الفكر العربي المعاصر"[١]، ولم يقف عند هذا الحد بل انتقل إلى جوانب أخرى منها الانقلاب على القيم المتوارثة عبر أفكار جديدة أبرزها الوجودية، والرومانسية، والتي كانت أهم أسباب شيوع الاغتراب .

وبعد اصطدامه بالواقع الذي لا يراعي حرمة الإنسان وعجزه عن تغيير هذا الواقع المفروض اتجه إلى العزلة والغربة وكانت هذه الغربة واضحة في مجمل الأعمال الأدبية، يعد عدم الانتماء من أهم أسباب هذه الظاهرة[٢]، وهي ليست بالجديدة فهي ملازمة للمجتمع البشري تولدت عبر الصراعات الداخلية والخارجية في مسيرة الحياة الاجتماعية، فهي في تغيّر مستمر سواء كانت بعوامل مختارة أو مفروضة تفرضها طبيعة الأحداث السياسية والثقافية، وهذه العوامل تحتّم على الإنسان بشكل عام وعلى الأديب بشكل خاص ان يتعامل معها بغض النظر عن تقبله لها من عدمه.

ولإيجاد طريقة تواصلية نفسية إيجابية ومنها الانتماء الاجتماعي والطبقي يتولد الإحساس بالحياة وتتجسد في مشاعر فقدان الأهل والأحبة وفقدان الهوية والانتماء والوطن، لأنه عامل مهم في تحديد الهوية الفردية، وانتمائه إلى مجتمع وواقع معيش[٣]، يتمثل كل هذا في الكائن الحي الإنسان.

وهذا ما يسمى بالاغتراب بمختلف ألوانه وانواعه وتأثيره على الإنسان بفقدان التوازن الاجتماعي والثقافي وانعزاله عن المجتمع المحيط به لشعوره بعدم فاعليته داخل المجتمع، وربما يتولد عبر انتزاع الملكية بطرق غير شرعية شخصية كانت أم عامة ممّا يسبب غياب التواصل الاجتماعي بين أفراده وهناك جانب آخر هو الاغتراب الديني الذي ينتج عبر التجارب الفاشلة وإرجاع مسبباتها إ ليه[٤]، وخير من يمثل هذا الشعور هو الأديب الذي يرصد حالات المجتمع شخصية كانت أم عامة ولنا في علي الحديثي خير مثال في الاغتراب النفسي والسياسي والاجتماعي وتأثير كل من هذه الظروف على مسيرته الأدبية، لذلك سوف أسلط الضوء على هذه الظاهرة ودراستها نظريا وتحديد مفاهيمها ومحاولة تطبيقها في الرواية قيد البحث.

علي الحديثي:

يعدّ الروائي علي الحديثي من الأدباء البارزين في الساحة العراقية مع أعماله الروائي اليسيرة قياساً بمعاصريه، فقد عاش حياة البؤس والفق أيام الحرب العراقية الإيرانية والحصار الاقتصادي وما تركه من عوز مادي واقتصادي، والحديثي عاصر كل هذه الأحداث، والتي تركت بصمتها على إنتاجه الأدبي

هو (علي عبد الرحمن عبد الرزاق والمشهور بعلي الحديثي) ولد في بغداد في عام ١٩٦٨، اكمل دراسته الجامعية وتخصص في اللغة عربية، عمل مدرساً في قضاء المحمودية، حصل على عضوية اتحاد الأدباء العراقي وعضوية نقابة الصحفيين العراقيين[٥] .

المبحث الأول

الغربة والاغتراب

مفهوم الاغتراب في اللغة العربية واسع جداً وتناوله الكثير من العلماء بالدراسة والبحث، ولكننا نجد في مجملها اتفاقاً ضمنياً على عدة ركائز أساسية هي: الانفصال الذي يدل على حالة الطلاق بين الأزواج، وفقدان الثروة أو حرية التصرف بالممتلكات الخاصة وتدهور الحالة المادية خصوصاً في مراحل الحياة الأولية وتحصيل العلم وما يؤثر في الحالة النفسية إذ جاء في لسان العرب ان "التغريبُ: النفيُ عَنِ الْبَلَدِ الَّذِي وَقَعَتِ الجِنايةُ فِيهِ. يُقَالُ: أَغرَبْتُه وغَرَّبْتُه إِذا نَحَّيْتَه وأَبْعَدْتَه. والتَّغَرُّبُ: البُعْدُ... والغُرْبةُ والغُرْب: النُّزوحُ عَنِ الوَطَن"[٦]. الغربة النفسية، الخضوع، ولابن الأثير الجزري معان واستعمالات متعدد في تتبعه لمعاني الاغتراب في نصوص اللغويين في مصنفه (النهاية في غريب الحديث والأثر) إذ يقول: "الذّهاب والتنحّي عن الناس. وقد غَرَب عنَّا يَغْرُب غَرْباً، وغَرَّب، وأغْرَب، وغرَّبه وأغربه إذا نحّاه. والغَرْبة والغَرْب: النوى والبعد،...والغريب هو البعيد عن وطنه، والغريب من الكلام: الغامضُ. وأغرب الرجل إذا جاء بشيء غريب"[٧]، مادة (غَرب) في المعاجم العربية تدل على معان متعددة، عند دراسة هذه المفردة والبحث عن معانيها بين النقاد نرى انها تنطوي على دلالات ومفاهيم متعددة[٨]، ومجالات متعددة أيضا منها النفسي والديني والاجتماعي والحقوقي، ومن الواضح ان الاغتراب حالة متأصلة في المجتمع الإنساني قديماً وحديثاً، إذ نجد نماذج عديدة عاشت حالة الاغتراب بمختلف أسبابه وانواعه، فمثلاً أمرؤ القيس عانى من الاغتراب فيما ظهر منه من تشبيب زوجة أبيه وطرده من القبيلة، وعنترة بن شداد عاش الاغتراب النفسي والعاطفي والمجتمعي بسبب عرق أمه ولونه الأسود، وصولا لذي الرمة الذي عاش في حالة الاغتراب لما يقارب العشرون عاماً نتيجة عشقه لميّة[٩]، والذي يتعمق في مفهوم الغربة والاغتراب يجد ان طبقة المغتربين هم أصحاب نظرة مستقبلية وطموح في تغيير الواقع لكنهم وجدوا ما هو خارج عن طاقتهم، لان الاغتراب بحد ذاته هو "حالة انسانية نفسية اجتماعية تسيطر على الفرد، فتجعله غريبا وبعيدا عن واقعه الاجتماعي"[١٠]،

أما الكتّاب المعاصرون فقط كان لهم النصيب الأكبر في اكثر انواع الاغتراب تأثيراً على النفس وهو الاغتراب الذاتي والشخصي ومدى توتر العلاقة بينهما والذي يعد من اصعب حالات الاغتراب لما فيه من تأثير مباشر على النتاج الأدبي.

ولأهمية هذه الظاهرة وتفشيها في أغلب المجتمعات المتحضّرة تعرّض إليها الكثير من الباحثين بالبحث والتقصي حتى اتصف أغلب المبدعين بالغربة لان "عبقريّة الفنان تجعله غريبا عن المجتمع الذي يعيش فيه، لأنه بحكم تركيبه العقلي والوجدانيّ وبحكم خبراته الخاصة غير الشائعة وغير المتّسمة بالعمومية وفردانيته وتفرده، يجد انه عاجزٌ عن الانسجام مع الناس فيما يلهون فيه، فالكثير من المشاغل التي تجذب انتباه الناس الآخرين تبدو سخيفة في نظر الفنان، فهو يبحث شعوريا ولا شعوريا عن غير المألوف"[١١]، تعرض المثقف في البلاد العربية بشكل خاص إلى انواع مختلفة من الاغتراب أدت إلى نتائج سلبية عديدة منها "الانسلاخ عن المجتمع والعزلة والانعزال، والعجز عن التلاؤم، والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء، بل وأيضاً انعدام الشعور بمعزى الحياة"[١٢]، وعدم الاندماج في المجتمع والاعتكاف، أو مسايرة الانظمة الفاسدة والعمل معها، أو التمرد على هذه الانظمة بالتظاهرات والثورات، أو الهروب إلى أوطان جديدة للحصول على حياة كريمة تضمن لصاحبها حرية العيش والرأي، الانفصال عن الذات، الانخلاع عن المجتمع والابتعاد عنه، الهروب من المواجه وتجنب السلطة[١٣]، لوجود تداخل بين الحياة السياسية والحرية الشخصية والانظمة الحاكمة فإذا اتجهنا ناحية الأدب العربي الحديث.

أما الغربة فهي تمثل عمق الظاهرة وتجسيدها للواقع المعيش لان "مفهوم الاغتراب أوسع وأشمل من مفهوم الغربة، لأنه يعني كلّ مستويات الغربة من جسديّة وروحية، ذاتية وموضوعيّة ، انسانية عاطفيّة ،وتأمّلية كونية"[١٤]، وعلي الحديثي لم يسلم من الاغتراب وساير أقرانه الأدباء فيه، فمعاناته من الحروب والحصار وقمع الحريات والأعراف الاجتماعية السائدة، كل هذا فرض عليه الغربة سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي ؛ لإيمانه بعدم قدرته على خوض هذه التجربة الخاسرة وعجزه مع كل المحاولات الفاشلة والتي أراد من خلالها تغيير الواقع؛ لذا نجده يتمرد على الواقع بمحاولات فردية مرة، ومرة أخرى بالانضمام إلى أمثاله عبر أساليب مختلفة منها التظاهرات والاجتماعات السرية، أو يختار الوحدة والهروب من الواقع الذي لا يطاق، ليتجه إلى نوع جديد هو

الغربة الفكرية لان "الغربة الفكرية من أقسى انواع الاغتراب، لأنها من دون شكّ منبع من انقى منابع الخلق الإبداعي، وقد يقود الاغتراب الفكري المبدع الأصيلَ إلى العزلة عن مجتمعه على الرّغم من انه يشعر بخطواته الواثقة في بناء المجتمع"[١٥]، ولو نظرنا إلى ظاهرة الاغتراب من زاوية أخرى سنجدها تنتج نصوصاً أدبية رائعة لكنها على حساب المبدع الذي يتعرض إلى عذابات نفسية واجتماعية كبيرة.

الوجودية وأثرها في ظاهرة الاغتراب

يمتدّ تاريخ الوجودية إلى بدايات القرن العشرين أي بعد الحرب العالمية الثانية وما خلفته هذه الحرب من اثار نفسية داخل النفس الإنسانية، تبحث في الوجود الإنساني ومراحل نموه ومراحل التطور الفكري الذي يخضع لمؤثّرات ربما تكون داخلية أو خارجية وتكون أفكاره مخالفة لما هو سائد من قوانين أو أعراف اجتماعية، وهي فلسفة خاصة بهذا القرن، لأنها تبحث عن الذات الإنسانية التي تضمن حرية الدين والمعتقد والتجرد من القيود الاجتماعية التي تنافي حرية الإنسان، وكل ما هو خارج ذلك هو انتهاك للذات الإنسانية، وبلغت ذروتها من بداية منتصف القرن إلى الربع الثالث منه، لكننا نجد طبقات مجتمعية خاصة مازالت متأثرة بهذا الفكر ومن أهمّها طبقة المثقفين والأدباء لما لها من انعكاس في أعمالهم الأدبية.

تناول الكثير من العلماء والمفكرين الغرب الوجودية، وبحثوا عن أسبابها وحدّدها سارتر حسب قوله "الأزمات الاقتصادية التي برزت في القرن العشرين، والحروب التي عصفت بالعواطف واضاعت القيم وهدرت المبادئ السامية"[١٦]، وما خلفته من أزمات نفسية والثورة على القيم والمثل العليا والشك بها ومحاربتها و "عن ايمانه بالمجتمعية، وبالأفكار الإنسانية الشاملة وبالحقائق التي لا تنقص"[١٧]، واعتزاله المجتمع المحيط به لفقدان الثقة بكل ما مشترك بينهما، واللجوء إلى ذاته التي لا ترتبط بحدود اجتماعية أو دينية أو سياسية.

أما (ماكوري) فيرى وجود علاقة ترابطية بين الوجودية والاغتراب اذ وصف الوجودية بانها شعور "بأزمة وبتهديد وبتمزق واغتراب"[١٨]، من الواضح وجود علاقة ترابطية بين ظاهرة الاغتراب والوجودية فمن يخالف التقاليد والأعراف الاجتماعية السائدة يجد نفسه "بوجه حقيقته، وان تحمله بالتالي المسؤولية الكاملة لوجوده، فالاغتراب يرتبط لديها بالحرية الفردية التي هي معنى الحياة لذلك فهو يعد

في نظرها ذرب من ضروب الوجود الزائف"[١٩]، ومن يؤمن بهذا المذهب يتولد لديه الإحساس بالاغتراب.

و(ماركس) الذي تأثّر بآراء علماء سبقوه أمثال (روسو، هيجل، لوكاش)، فقد بحث الاغتراب المجتمعي وتأثيره على الشخصية الإنسانية في الدول الصناعية التي تتبع النظام الرأسمالي، ووجدها تشير إلى الضعف والعوز وهو من أهمّ مقومات الغربة.

مع وجود هذا الكمّ الكبير من الدراسات التي تناولت ظاهرت الاغتراب لا يمكن تحديد تعريف محدّد له، فكثرة الآراء وسّعت مفاهيمه وآفاقه ومجالاته، ويمكن تلخيص أهمّ اسبابه، بالعجز عن مسايرة المجتمع، الشعور بالنفور من قوانينه وأعرافه، غياب الرغبة في مواصلة التعايش المجتمعي وعد الاهتمام فيه، اختلاف الرؤى والأفكار والتوجهات معه، النفور من الحياة.

مع وجود الإنتاج الغزير وتعدّد الأدباء وسلوك طريق الحداثة والذي يعدّه بعض النقاد خروجاً عن المألوف والمتعارف عليه، والذي يهمّنا هنا هم الروائيون الجدد الذين مزجوا الحداثة مع الموروث وتطوّر الحياة الإنسانية الجديدة، ومحاولة تأصيل هذا الفن الجديد "من خلال عملية تأصيلٍ ومزج وإفادة من الموروث، فإذا هم يؤكدون في بداية حركتهم انهم لا يثورون على القواعد الكلاسيكية بالمعنى الدّارج للثورة، ولكنّهم طوّروا العناصر التي اعتقدنا انها أصبحت فاسدة"[٢٠]، لم تمرّ هذه التجربة الجديدة على الساحة الأدبية مرور الكرام بل مرّت بمراحل عصيبة عبر الكثير من الإخفاقات والتعثرات، والمتتبع للأعمال الأدبية الحديثة يجد انعكاس هذه الإخفاقات في اللغة والأسلوب والصياغة خصوصاً في العراق فهو "توتر بين جِدّة المضامين وتعقّد المشاكل وعنف التجارب والمشاعر التي خلص بها من آثار الحرب العالمية التي دهمت المجتمع العراقي وتقاليده وأعرافه، وهو في حالة من الجمود والتأخّر الشديدين"[٢١]، أمّا عن علاقة الترابط بين موضوع الرواية وأفكار الكاتب ورؤاه واتجاهاته وتجاربه والتي تتأثّر بالظروف المحيطة به وتوظيفها داخل الرواية ، بالشكل والمضمون لان "مادّة النموذج الأدبي وصورته لا تفترقان، فهما كلّ واحد، وهو كلّ يتألف من خصائص جمالية مختلفة قد يردّها النظر السريع إلى الخارج أو الشّكل، ولكنّنا ان أمعنا النظر وجدناها تُردّ إلى الداخل والمضمون فهي تنطوي فيه، أو قُلْ تنمو فيه"[٢٢]، إذ كان اتجاه الكتّاب يتجه إلى مسايرة الموروث والسير على

خطى الأقدمين لكننا نجد كتّاباً جدداً لهم طرق خاصة في تجديد الأفكار والأساليب والموضوعات الروائية.

إنَّ الظلم يولّد لوناً جديداً من الاغتراب الروحي والذي يتحكّم في وعي الأديب مما يقوده إلى الغوص في مجاهيل الوعي الديني والفلسفي والذي قاده إلى ضياع الباحث عن ظاهرة الاغتراب الوجودي في العصر الحديث يجد أنّ للإسلام وتعاليمه السمحة دورا كبيرا في معالجة النفس الإنسانية ؛ لذا نجد اتجاه عدد من كبير من الادباء والكتّاب في التعبير عن همومهم إلى الله تعالى، لمطابقة هذه التعاليم الدينية السمحة الهموم، ومن ثمّ وجّه الكاتب قائلاً : "الخمار مثلا في "وليضربْن بخمرهنّ على جيوبهنّ ولا يبدين زينتهنّ" ذُكر لتغطية الجيب وليس الرأس، وهنا عندنا مشكلة، فالله قال "زينتهن"، ولكنه لم يحدّد هذه الزينة، فكيف سأعرفها؟ لو أتينا بعشر نساء مختلفات الثقافة ومن دول مختلفة، ووجَّهنا لهنّ هذا السؤال: ما زينة المرأة؟ هل تظنين أننا سنحصل على جواب واحد"[٢٣]، والسؤال هنا عبارة عن مقارنة بين الشعوب الإسلامية والغربية وتأثير التعاليم الإسلامية الحقيقية والزائفة، "ففي مواضع كثيرة يقرن الله دخول الجنة أو النار بالخلود.. لماذا؟ أكاد أشعر أنّ الله أغرى الناس بالخلود في الجنة أكثر مما أغراهم بالنعيم.. وأخافهم بالخلود في النار أكثر من عذابها"[٢٤]، يبحث الحديثي عن أسباب الخلود عبر إثارة التساؤل ما بين الجنة والنار ومن هو الفائز بهما وهي دعوى للتمسك بحبل الله بعد انتشار الفسق بين العباد والمقصود هو الفسق السياسي أكثر من الفسق الديني.

تركز الذات الواعية على الآخر وتهتم بكل ما يحيط به من بيئة وسياسة واجتماع وتتأثّر به ؛ لذا تحس باغتراب حقيقي أي تتحول من ذاته إلى ذات الآخر وبالتالي يحس بغربة ذاتية الكلام موجه إلى (الذات) وبشكل مباشر وحاول انتقاء ألفاظ خاصة تدلّ على الاغتراب الحقيقي "أردد مع نفسي بالدعاء له، لم أكن أعرف كيف ستكون الحياة وسط هذا الدمار لولا حبه"[٢٥]، يصور الحياة الدنيا بانها مهد العذاب والآلام فيحاول تجاوزها بغية الوصول الى الذات، "وأنا أدور بنظراتي في الظلام، ولم تمضِ سوى لحظات حتى بدأت أشعة الشمس تظهر شيئًا فشيئًا، فإذا بحشود الناس ترتفع للأعلى، لتدخل من ثقب فُتح في السماء"[٢٦] ، الظلام ملازم له طوال حياته ومرافقه منذ ولادته إلى وفاته ومسيطر عليه كحيوان مفترس ينهش من لحمه متى يشاء وهي صورة مأساوية سوداوية، "أستصرخ الظلام أن يحتوي

شتاتي الذي احترق تحت أشعة الشمس، لا شيء هنا.. لا شيء هناك.. الصحراء تمد ذراعيها حتى غاصت في بقايا الوجود.. المطر يتشظى بين الشوارع"[٢٧]، الملاحظ كثرة الاستفسارات عن وجود الله في جميع الأماكن المختلفة وعن وجوده وكينونته وهذا ما يبرر ان الانسان "يولد بلا مبرر ويستمر عن ضعف ويموت مصادفة"[٢٨]، الاغتراب النفسي لا يأتي عن فراغ بل يولد من رحم التجارب الفاشلة المتراكمة ومن نتائج هذه التجارب فقدان الأمل بتغيير الواقع مع وجود سلطات ظالمة، وهذا بدوره يوحي الشعور بالضياع.

الروايات قيد البحث عبر وسائل التواصل الاجتماعي الحديثة هي (الفيسبوك) والتي لها انتشاراً كبيراً بين مختلف طبقات المجتمع "أتشعر ان لقاءنا الأول فيه شيء من الغرابة، بدانا الحديث وكان أحدنا يعرف الآخر منذ زمن طويل. إمّا لأنك ذكي أو ماكر....

- بدانا بسوء الظن.. لا بأس.. الذكاء جزء من المكر.. وعهدي بنفسي انني غبيّ..

لم تخبرني.. ما تعني بقولك ما الجديد؟... هل أنت دائمًا تتأخر عن مواعيد

- لا.. انا دائمًا أتأخر عن أحلامي..
- قطّبت حاجبيها، وهي تنظر إليّ..
- ولكنك بطريقتك نجحت في إزالة كثير من توتّري.. كنت خائفة جدًّا.. فانا لم أحدّث أحدًا على "الفيس" منذ ان انشأت صفحتي قبل سنتين أو ثلاث"[٢٩]، ظاهرة الاغتراب قديمة جدا ولا تولدها الأحداث السياسية أو الاجتماعية فقط، لأن جذورها عميقة في ذاكرة البشر لوجودها بأشكال وأنواع مختلفة، فإذا أمعنا النظر في الروايات "لا شيء على الأرض يستحق ان أقتل إنسانا من أجله، الأوطان وجدت من أجل استقرار الإنسان في مكان على الأرض، فهل أصبحت لغة الوطن سكيناً بيد الحكام ليجزوا رقبة الإنسان؟ القصاب يذبح الخروف ليطعمنا لحمه، والحكومات تذبح البشرية لتطعم كراسيها من أعمارنا"[٣٠]، يناور الحديثي بين التصريح المباشر وغير المباشر بحالة الاغتراب إذ يقول: (سكيناً) وهذا تصريح مباشر بوجود الاغتراب الذي أحس به إذ يرى أنّ جدران المدرسة تعاني من الغربة والوحشة بفعل أهوال الحرب وتجنيد المجتمع وإرسالهم إلى جبهات القتال حتى أصبح لا يعرف مدرسة الطفولة و لا هي تعرفه لأن اغلب الأدباء يتأثرون بالمواضيع الدينية والاجتماعية لوجود أفكار خاصة تجول في مخيلتهم يتميزون بها، مثل الحنين المبالغ فيه الى مواطن الطفولة أو الاغتراب سواء كان طوعياً

او جبرياً للهروب من الفشل أو الفقر او السلطات المتعسفة مما يكوّن لديهم غربة يحاولون تجسيدها بصور مختلفة.

"فقلت وأنا أضحك ضحكة تخفي في طياتها الحزن والألم"[٣١]، من آثار الاغتراب النفسي ان تكون الشخصية المغتربة فاقدة الإحساس بالانتماء الوطني والسياسي والمجتمعي وبالتالي تكون شخصية سلبية وصاحبة سلوك مختلف عن الشخصيات الأخرى لذا كرر الكاتب كلمة (الضحك) وهي تعبير عن حالة اضطراب وخوف وفزع من كل الأماكن حتى بيت العائلة الذي ترك في نفسه حالة من الذعر والرقابة وخوف يطارده أينما ذهب، والحيرة بين الفرح والحزن من علامات الاضطراب النفسي هذا ناتج عن متغيّرات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي جردته من الإحساس الطبيعي وعدم مشاركة فريقه ملابسهم لأنه يرى الجانب السلبي فقط، وهو هنا يتبع إحدى مقوّمات المذهب الوجودي الذي يبرر البشاعة الإنسانية من ظلم وقهر وعدم احترام انسانية الإنسان وحقوقه المشروعة وبالتالي شعوره بالغربة والضياع، فكل من يتبع هذا المذهب تكون نصوصه الأدبية مرآة عاكسه لأفكاره وآراءه الحقيقية.

الاغتراب المكاني

هناك فرق بين الغربة المكانية والاغتراب المكاني ، فالغربة المكانية . في أصل المعنى . ترتبط ببعد المسافات والأحقاب الزمنية ، أمّا الاغتراب فهو متحرّر من قيد هذا الارتباط ، فقد يشكّل غربة نفسية لاختلاف البيئة بين الوطن الأمّ والبيئة الحاضنة لما يوجد من اختلاف القانون والدين وحتى الطقس ومحاولة المغترب التأقلم مع كل هذه المتغيرات والتطوّر في الوطن الجديد ومقارنته بالتخلف والتبعية في الوطن الأصلي وما يحصل فيه من سلب الحريات والفكر والسياسة ؛ ولذا فإنّ فإنّ صاحب الغربة يشعر بأنّه غريب في مكانه ونفسه ، وقد ينثر هذا الشعور بذور الغربة داخل النفس وخارجها .

فالغربة المكانية لها تأثيرٌ كبيرٌ في نصوص الكتّاب ؛ لإنّ المكان يُعدّ العنصر المهمّ في حياة المرء لما يمثّل مجموع التجارب الحسيّة التي تتفاعل مع المرءعامّة ومع الأديب خاصّة ، فعنصر المكان هو الأكثر التصاقاً بحياة المرء وله تأثيره الفاعل على حياة الإنسان وسلوكياته ، والمكانية تمثل الحيّز الذي تجري فيه الأحداث وليس عليه ؛ لأنّها تعدّ بُعد الواقع المادّي[٣٢] ، فالمكان يجسّد الإحساس لدى الأديب فضلاً عن العاطفة المتوهجة والروح الشاعرة بما حولها ، ولعلّه ينتج عن ذلك

مكاناً خاصّاً متصوّراً يختلف عمّا نراه ، فيؤدّي إلى دلالات جديدة ليرسم الأديب صورة تقترب كثيراً من إحساساته فيجعل منها مكاناً يألف به ويأنس بالتفاعل معه إذا كان متوافقا ومسايراً مع توجّهاته ورؤاه، أو معادياً فيؤدّي إلى تذمّر الأديب؛ لأنّه لا يتوافق مع توجهاته وأفكاره[٣٣] .

تقسم الغربة المكانية على قسمين :

القسم الأوّل: غربة داخلية، ويمكن أن نقسمها إلى:

١. غربة المكان داخل الوطن : وخير مثال عليها الانتقال من مدينة المحمودية الصغيرة إلى مدينة بغداد الكبيرة والتي تتنوّع فيها الأمكنة فمنها الشوارع الواسعة والتي احتضنت المظاهرات التي تشجب الأفكار السياسية والاجتماعية الجديدة .

٢. الغربة النفسية التي تصارع اختلاجات الألم الروحي والشعور بالحزن والخوف والاضطراب نتيجة القيود المجتمعية أو التسلّط السياسي الذي يتحكّم بنظام الحياة الاجتماعية، أو العوامل الاقتصادية التي تخلق الواقع الطبقي بين أفراد المجتمع الإنساني

امّا القسم الثاني فهو: الغربة الخارجية : والتي تشمل :

١. الواقع الاجتماعي المتمثّل بمنظومة التقاليد والأعراف التي فُرضت على البيئة المحيطة في حياة الفرد.

٢. الواقع السياسي الذي يتحكّم بنظام الحياة الإدارية وصياغة القوانين وسنّها .

٣. الواقع الاقتصادي والعوامل المؤثّرة عليه ، وأسباب خلق الواقع الطبقي بين أفراد المجتمع الإنساني .

٤. الواقع الديني : والذي يُعدّ من أقوى الضوابط الاجتماعية المقدّسة التي لا يمكن للفرد أن يحيد عنها بأيّ شكل من الأشكال .

والعامل المشترك بينهما هو الغربتين الداخلية والخارجية هو الغربة النفسية والتي يمكن أن يكون الإنسان غريباً في مكانٍ غير مكانه ، أو غريباً في نفسه فيعتزل المجتمع نتيجة لاختلافه في الرؤى والأفكار . كما ذكرنا ذلك آنفاً . ممّا يسبّب إثارة الحزن والقلق والخوف والعزلة المجتمعية، "الذي بالغ في اعتزال المجتمع، فقد انعكس موقفه من المجتمع على موقفه في المدينة في مرحلته الاغترابية الأولى، فلم يزل شاباً، داهمته الغربة الاجتماعية، حين دخل المدينة حذراً من مجهول يخشاه"[٣٤]، يعبّر

الحديثي عن أحزانه وآلامه عبر صورة بصرية ليصوّر الذات الإنسانية ممثلة بشخصيات روائية متعدّدة إذ يقول: "كلّما سمعت قرعًا على الباب نظرت إليه بلهفة وشوق وخوف وقلق وجنون"[٣٥]، ففي هذا النصّ تعبير عن ذاته ومعاناته الشخصية عبر شخصيات وأسماء وحبكة درامية لتبرير غربته في المجتمع الذي لا يراعي حرمة العلم ولا يساير عجلة الزمن "بدموع عراقية، يقال بأن الدموع تكون مالحة، ولكن دموعي لم تكن مالحة ولا حلوة.. بل كانت دموعا دجلوية.. لم أكن أريد أن اترك تراب بغداد، فكيف أترك ترابا سرنا أنا وانت عليها؟ ترابا هو أول ما لامس قدميَّ الحافتين؟ أتذكر يوم كنا نسير معا، هواء بغداد لمّ أنفاسنا معا ونثرها حبّاً بين الدروب"[٣٦]، صور الكاتب مرارة الحرمان والعجز ليكون مصدراً للانكسار وبالتالي أصبحت بغداد مكانا معاديا لان كل ما يحيط بها يدل على الإحباط "كأنّ جدران المدرسة المتشققة أفواه تناديني، نسائم الحنين حبال تجرني إليها، لتلامس شغاف القلب، لم أستطع منع انف الذكريات من أن يشمّ عطر تلك الأيام، أزحت بدخان سيكارتي غبار الزمن عن ملامح وجهها الهرم، كنت أخشى ان أقترب منها، ففي أي لحظة سينادون باسمي لأتسلّم كتاب الالتحاق بالعسكرية من بناية التجنيد التي أقف بجوارها"[٣٧]، يرمز الكاتب إلى الغربة المكانية الداخلية عبر هذا الوصف والمراد هو وصف شعوره بالخوف والفزع والغربة تجاه المدينة التي تزاحمت فيها السيارات والبيوت الفارهة، "فمنذ ان عرفت الواقع أيقنت ان التأريخ أعور.. فهل نحن إلا تاريخ الغد، فهل يختلف ساسة الأمس عن ساسة اليوم الذين نراهم كيف يتلاعبون بألوان لوحته، حروف التاريخ كتبتها أقلام صنعت من أرجل الكراسي"[٣٨]، يصرح الحديثي بغربة المكان النفسية اعتزل الجميع وتولدت لدية عزلة مكانية فجدران البيت العالية وأثاثة الفخم كانت بمثابة جدران فاصلة بينه وبين المجتمع تجبره على عدم البوح بأفكاره المنافية لعادات وتقاليد هذا المجتمع وبالتالي تحققت الغربة المكانية

نجد الروايات متكاملة من الناحية الفنية ومعبرة عن الذاتية والغربة الواضحة عبر أحداثها التي تصف ألم ومرارة الواقع المعيش، فهي مرآة عاكسة لما يكتم في النفس الإنسانية وما يشعر به من ذل وانكسار وخيبة أمل في المجتمع. "أحقّا إنّ وشائج الطفولة هي أوثق الصلات كما يقول براء؟ ما الذي يجبرني ان أبقى معه وقد تسبّبت لي علاقتي به مشاكل مع الآخرين، فعندما عدت منه ذات ليلة اعترضني ثلاثة أشخاص لا أعرفهم، اقتادوني إلى بيت اتخذوه مقرا لهم، لم أكن أعرف أحدا منهم، وحتى الرجل

الذي كان جالسا خلف مكتب كان غريباً، وكان يسألني عن سرّ علاقتي ببراء وفاضل، فصفحتي بيضاء كما أثبتت تحرياتهم كما يقول، فقلت له:

– أنت غريب عن المنطقة.. لو كنت من أهلها لعرفت انني وبراء أصدقاء منذ الطفولة.. هل تعرف ما معنى ان يكون لك صديق لأكثر من خمس وثلاثين سنة.. انها ليست قميصا نخلعه متى شئنا..

– ألا تخاف من القتل؟"[٣٩]، المتتبع للحركة السردية يجد ان ظاهرة الغربة تتمحور في محاور متعددة منها: الغرابة في التصرفات أو ردود الأفعال جزاء بعض المواقف الإنسانية أو يمكن ان نسميها البشرية والمواقف الإلهية أو الخلقية التي لا يمكن للإنسان ان يتدخل فيها، عبر رفضها وادانتها ومخالفة العامة والاتيان بآراء جديدة ثم الدخول في غربة اجتماعية "ان يجهر برأيه في الحاكم والجماهير، فتعقّبته السلطة حتى جفّفت في قلبه المداد، فاتخذ من السّماء معادلا موضوعيا يفرّغ فيه أحزانه وتمرّداته"[٤٠]، يتجسّد الاغتراب المكاني بقوة لخلوه من أي شخص يهوّن عليه غربته وهذا واضحٌ من كلمة (الاقتياد) التي تعبّر عن حالة خوف واغتراب ظاهري ونفسي ليحلّق في عالم جديد يجد فيه الغربة المكانية، أول ما يلفت النظر وجود لفظة الاغتراب صراحةً، السبب الأساس الذي جعله يشعر بعدائه وغربته للمكان بدل الالفة هو الخوف لوجود إشارة واضحة إلى الخوف من الوطن والأحداث المريبة التي مرّت به فهو منبع الخوف والجنون وفي نصّ اخر يصف نفسه بنفس الوصف لإيجاد علاقة ترابطية حقيقية بين جنونه وجنون الوطن تبرّر كل الطيش الذي عمله في حياته لأنه ابن هذا الوطن ونابع منه يتأثّر بكلّ المؤثّرات التي تحكمه، وعدم النوم والخوف من تبعاته "اقتربت منك وهاجس الخوف يلازمني دائما، وفي الوقت نفسه، الصوت الخفي يجعلني أشعر بالأمان معك، لا أعرف لِمَ، ولكن كان لا بدّ لي من خطوة قبل أن يأتي يوم التفت إلى الوراء فلا أرى سوى جسد قد اضمحلّ.. وروح متهالكة، منذ كنت صغيرة أخرجت فكرة الزواج من رأسي، كنت أرى علاقة أمي وأبي علاقة روبوتية" [٤١]، لان انتماؤه إلى المجتمع هو الوجه الإيجابي، أما اغترابه فهو الوجه السلبي وبالتالي تحقق الوجهان الإيجابي والسلبي حاول الحديثي ان يسلك أسهل الطرق في إيصال فكرته التي بنا حولها أحداث الرواية عبر استخدام الألفاظ الدارجة أو السهلة وعدم زج التراكيب المعقدة وإرغام القارئ على الغوص في فكر الكاتب لمعرفة ما وراء القصد "فكلّ غموض دليل إمّا على العجز عن الأداء، أو التدجيل، أو استبهام الفكرة في ذهن صاحبه، والذي يعيب على الحديثي انه سلك طريق

السهولة ليس لضعفه أو لقلّة خبرته ؛ بل ليثبت انه متمكن من استعمال أدوات أو أساليب مبطّنة لمعالجة حالات إنسانية اجتماعية والغوص في مكامن الحقيقة لإيصال ما يريده "فلم يكن تفاؤله عابثاً، أو لاهياً عن التفكير حتى في التفاؤل نفسه ومصدره ومصدر ما يبحث عنه من مسرّة"[٤٢].

الاغتراب الروحي

لا يمكن دراسة النصوص الأدبية ومعرفة أسرارها إلّا عبر معرفة ما يدور حول النصّ أي معرفة أهمّ الأحداث التي صاحبت ولادة هذا النصّ، فيجب البحث عن أهمّ الأحداث والمواقف أ خاصة كانت أم عامة ؟ وعدها المسبب لإثارة دوافع داخلية أو خارجية لإثارة القريحة الأدبية التي أنتجت هذا الإبداع.

أمّا عن ظاهرة الاغتراب التي نحن بصدد دراستها فيمكن تقسيمها على نوعين الأول هما:

١. الاغتراب الداخلي : وهو الاغتراب النفسي المتمثل بطبيعة الإحساس العاطفي والروحي الذي يعبّر عن كلّ ما يختلج في صدر الإنسان من رؤى وانفعالات ومن صور سلبية أو إيجابية ، ويمتدّ هذا النوع ليحيط بالزمان والمكان ، فالاغتراب الزماني يشعر المرء أنّ العادات والتقاليد والأعراف لا تلائم الزمن الحاضر وينبغي رفع القيود التي تكبّل ذلك ، أمّا الاغتراب المكاني فهو شعور الأديب بأنّه غريب في بيئته لما يمتلك من أفكار وبعد رؤى قد يتولّد منها تفجير ثورة فكريّة للتحرّر من القيود التي فرضتها الواقعية الاجتماعية مسبّبة الانعزال الاجتماعي للأديب وإحساسه بالاغتراب في نفسه ومكانه .

٢. الاغتراب الخارجي وخير مثال عليه هو السياسي والاجتماعي.

وعن طبيعة الاغتراب أو الإجابة عن السؤال الذي يقول ما هي أهم مظاهر الاغتراب فنقول: نبذ المجتمع أو عدم الاندماج فيه كلياً أو جزئياً، عدم الاكتراث بالمحيط الخارجي وما يتحكم بهذا المحيط من قوانين وقيم وأعراف، والاعتراض المباشر أو غير المباشر على طبيعة الحياة وعدم التكيف مع واقع الحال، السعي إلى حياة نرجسية ليس لها وجود على أرض الواقع.

في خضم هذه المقدمة لابد من الإشارة إلى تجربة الحديثي التي أثارت جدل النقاد المدافعين عن المسار التقليدي أو الكلاسيكي وبين روح الحداثة نجده يتلاعب في صياغة اللغة عبر انتقاء أفضل

الألفاظ التي تعبّر عن مكنونات النفس وهذا ما أسميناه بالاغتراب الداخلي وما يرافقها من فقدان الامن والأمان أي الاغتراب الخارجي.

يتمثل الاغتراب الروحي في نوعين السلبي وهو عبارة عن العزلة ومحاربة الذات الإنسانية ، أما الثاني فهو الإيجابي وهو الإبداع الفني الذي يترجم ما يختلج داخل مخيلة الكاتب، والاغتراب في روايات الحديثي يتمتع بهذه الصفات المتناقضة لأنه يمثل مرآة عاكسة لمسيرة حياته التي تتزاحم فيها العبثية والخيال وعدم الاكتراث والشعور بالملل والثورة على كل ما هو مقدس من أعراف وتقاليد، فهي "تُستعمل كثيرًا في وصف حالة المفكّر أو المثقف وتحليل دوره في المجتمع، بمعنى عدم قدرته على الاندماج النفسيّ والفكري، بالمقاييس الشعبية بوصفه الشخص الذي يُغلّب الشعور بالانفصال الرّائجة كثيرا في المجتمع"[٤٣]، وكثيرا ما تصاحبها أمراض نفسية أو يمكن القول انها أزمات تنتج إبداعاً فنياً صادقاً، لافتاً للنظر وهذا ما دفع الكثير من الفلاسفة والنقاد للبحث والتنقيب حول هذه الظاهرة الملهمة "ان حال الملهَم في لحظة الإلهام كحال من ينجذب انتباهه فجأة عندما يختلّ الاتزان لديه ويمضي نحو اتزان جديد"[٤٤]، إذا أمعنا النظر نجد علاقة ترابطية بين الحالة النفسية المتردية وثقافة الحديثي الواسعة، كما انها انعكست سلباً في حياته الشخصية وإيجاباً في انتاجه الأدبي وبالتالي إحساسه بالغربة لاختلاف درجة الإحساس بكل ما يجري من أحداث سياسية كانت أم اجتماعية، والمتتبع لنصوصه الأدبية يجد الغربة بصور متعددة، فهي تعبير عما يجول داخل نفسه من هواجس وانعكاسات انتجت صوراً ربما تكون متناقضة في بعض الأحيان كما هي نفسية المثقف العراقي. "أسير مسرعة قبل أن يمسك بي ذلك الكائن الغريب الذي يلاحقني وهو يضطرب في داخلي، لم أكن أعرف من هو؟ الناس.. الماضي.. الخوف.. حتى جاء اليوم الذي أخبرتني فيه سمر أن أحد زملائها صارحها بأنه معجب بها، فكان عذراً قوياً أخدع به نفسي للبقاء، الآن أصبح لديَّ العذر الذي أصفع به وجه ذلك الكائن الغريب"[٤٥]، أول ما يتبادر إلى ذهننا هو (الكائن الغريب) وان أمعنا النظر نجد انها تعبير عن غربة روحية متداخلة والبناء الفني للرواية معبرة عن الإحساس بالبعد عن كل ما هو مادي والتمسك بالبعد الروحي.

لم تبتعد المرأة عن نصوص الحديثي فهي حالة متجسدة غربية في المجتمع وواقعه تمثل حالة العبثية في نوع العلاقة بين الجنسين "وعلى وجهها امتزجت ملامح الخوف من وقوعي في شباكهم، وبسمة

الفرح عندما أنجو منهم"[٤٦]، يسعى الحديثي أحياناً إلى الهروب من الواقع إلى عالم الخيال أو المثالية المرسومة داخل عقله فقط، عبر كلمات أو جمل تشير إلى دلالة غرائبية وهي إشارة إلى عدم قدرته على الاندماج مع الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي، "في تدحرج رأسي خارج إطار احلامي المعتمة؟ ركض اللاعب ليأتي بالكرة، فمن سيأتيني برأ.... يا أله.. ما هذا؟ وقفت مبهوتة أحدق برأسي وهو في كفّه، يرقد بين أصابعه، إنه هو.. آخر مكان توقعت أن يكون فيه، بل لم أتوقعه أصلاً أن يكون هنا، بين دهشة وشوق.. فرحة واستغراب.. وألم لم يعد دفيناً.. جلست على مصطبة أراقبه، انتهزت وحدتي لعلّي أقرأ صفحاته بتمعن أكثر، الأجساد التي تمر أمامي باتت شفافة فلم تستطع أن تحجبه عني"[٤٧]، نرى ان محور النص يدور حول مكنونات نفسية اغترابيه معبر عنها بكلمات مباشرة وهي خير مثال على غربته الروحية.

في خضم الروايات نجد صراعاً قائماً بين الممكن وغير الممكن أو الواقع والخيال الذي لا وجود له إلا في عقل الحديثي والذي أنتج حيرة وقلقاً وغربة ومحاكاة عقلية "دخلنا المستشفى بحذر ونحن نتلفّت، وقد اختلطت على وجهينا ابتسامة ملطّخة بوحل الخوف، وقبل أن نقطع التذاكر أخذنا نتجول في المكان لنأخذ نظرة عامّة عن المكان بعدما اعتادت عيوننا على المنظر العاري، فقلت بصوت مرتفع أُسمعها، وإن لم أكن أدري هل وجّهت الكلام لها، أم إنه زفرة انطلقت بتلك الحروف"[٤٨]، مر الحديثي اغتراباً اجتماعياً كبيراً وهذ أنتج عاطفة كبيرة وإحساساً بالانجذاب نحو الطرف الآخر، لكن الحظّ لم يكن بجانبه فلم يجد من تشاركه العواطف وتكون نصفه الثاني، بل هي في مخيلته فقط، وانعكس هذا سلباً في إحساسه الداخلي مما ولد غربة روحية " كلّما سمعت قرعًا على الباب نظرت إليه بلهفة وشوق وخوف وقلق وجنون"[٤٩]، مما تقدم نقول ان ظاهرة الغربة في روايات الحديثي تمثل ازمة كبيرة لا يمكن ان نتجاوزها، متمثلة في صور مباشرة كالحب والثقافة، وغير مباشرة كالسياسة والسلطة.

الاغتراب بكل انواعه ثورة كبيرة تفجرها المكنونات النفسية المتولدة من عدم التكيف مع المؤثرات الخارجية وتوافقها مع النفس الشاعرة مما يولّد صرخة الم وصراع، لذا نجد الاديب يتفنّن بإبراز أشكال الوجع والحرمان الذي قاده إلى الاغتراب ومن أبرز صورها هي الانعكاس والخوف والوحدة، ومن أهمّ مصادر الاغتراب هو الفشل في الوصول إلى التكيف التان ما بين العالم الوهمي أو الحلم والعالم

الحقيقي الواقعي لوجود معوّقات اجتماعية إو سياسية أو دينية أو ميول شخصي، والخلاصة هي صورة ظاهرة لما يجول في خفايا النفس.

الموت والحديثي

للموت تأثيرٌ كبيرٌ في فلسفة الحديثي الروائية، وهو بطبيعة الحال نوعان الأول الذاتي "يرتبط بمعاناته زمن الاضطهاد والقهر والحرمان، فيتصوّره بصور رتيبة كئيبة ، يتجمّد فيها الزمن، وتتلبّد حركته في مفاصل الذات والحياة"[٥٠]، أما النوع الثاني فهو فلسفة الموت والتي تعني "الموت الذي يفضي إلى الانتصار من أجل تغيير وجه الشرّ والاستعباد، ولذلك نجد في مواجهة الموت نوعا من التحدّي والتمرّد والتشبّث بحركة الزمن"[٥١]، وهذا الذي جعله يتبنّى نظرة حزن واضحة جداً ولا يمكنه ان يخفيها، وعليه التعايش مع واقع الحال لأنّ الموت محتومٌ "أرى الناس يسيرون فوق حقول الألغام، لم تزل جراح الطائفية تنزّ ألما من عيونهم، يخشون الغد المكبل بخوف مجهول، يحاولون أن يضمدوا بنظراتهم جراحا لم تندمل، الأصابع الخفية جاهزة دوما لسحب صمام الأمان لتنكأ الجراح، يوم كان القاتل يتبختر بأنه قتل من الطرف الآخر كذا عدد، صور الموت واحدة في كل مكان، منذ أن رأيت الناس يتراكضون هلعا من انفجار حصل في إحدى الدول الأوربية"[٥٢]، تحول الحديثي من مرحلة الطيش واللهو والعبثية إلى البحث عن الخلود الأبدي وبدأت مرحلة جديدة يصوّر فيها هذا الخلود فالموت بشكل عام أمّا محتوم بطبيعته التكوينية التي لا يمكن الاعتراض عليه، وأمّا مخروم كما الموت في الحروب والمعتقلات، والنوع الثاني ترك أثراً سلبيا في مسيرة حياة الحديثي فيصوّره بقوله : "كنت كمن ينقب في تل أثري بحثا عن الذهب فيجد جثة لميت مازال دمه حاراً فيحير بها خوفا من اتهامه بقتلها، كيف لي أن أسدّد سهما واحدا على ثلاث تفاحات متجاورة.. ذكرأة التي تترصدني.. أمنية التي تحمل حباً بلا ملامح.. و. فريني.. فريني التي بات جسدها ساحة لإعدام أفكاري عندما تُغلق جميع النوافذ.. أرى ذكراة تستلقي أرضا من الضحك"[٥٣]، من الواضح ان فلسفة الموت ذات تأثيرٍ كبيرٍ في روايات الحديثي فنراه يقوده إلى الغربة عبر العزلة والتمرّد السياسي والاجتماعي؛ لأنه تعبير عن الغضب والاحتجاج على واقع الحياة المفروض عليه "أريد أن أشترك بالمظاهرة ليس لأبعد عن نفسي الشبهة كما طلبت سراب، بل لأنني كنت ضد القتل مهما كان، ليتكم حينها هتفتم (الموت للصهيونية)، يا صبيح، الصراع لم يكن إسلاميا/ يهوديا.. بل هو صراع سياسي، وأسلم طريقة لهم هو إلباسها الصراع

ثوب الدين لينجرف الناس من الطرفين لمساندة هؤلاء السياسيين، الدين هو أسهل طريقة لضمان خداع الناس، أحيانا أفكر هل الخلل في الدين؟ أم في حَمَلَة الدين؟ أم في الناس الذين جعلوا من الدين مخدراً يلغي عقولهم؟ برغم ذلك المشكلة لا تكمن هنا، المشكلة كلها تكمن في أنكم تعرفون ما أقول، وتتحدثون به بينكم في الشوارع والمقاهي والأسواق." [٥٤]، يحاول الحديثي استعمال ألفاظ أو فلسفة خاصة لإثارة الجدل في ذهن القارئ عبر هذه التساؤلات للوصول إلى حقيقة الوجود الإنساني في الحياة وما بعدها مع علمه بعدم إمكانية أيٍّ منا الوصول إلى هذه الأسرار الربّانية، "تغاضيت عن طلبي متقصدا، لأعيد الهدوء إلى جلستنا، لم أشأ إحراجها في أول لقاء بيننا، مازال الطريق بيننا متعكّرا بغربة أحدنا عن الآخر، عندما وصلتُ الفندق أوّل رسالة فتحتها في الفيس كانت منها تطلب مني أن أخبرها حين وصولي"[٥٥]، القهر الاجتماعي من أكثر الأسباب التي تؤدي إلى التمرد على الواقع [٥٦]، والاغتراب الاجتماعي له صلته المباشرة بمرحلة طفولة الفرد التي تترك أثرها على شخصية الأديب سلبا أو إيجابا، وطفولة الحديثي كانت قاسية جدا ومقيّدة بالأعراف والتقاليد الاجتماعية التي طوقته بأحكامها وأعرافها مما حدا به إلى الثورة على كل ما هو مقدس فيها والتصرّف على هواه[٥٧]، فغياب الحبيبة والخليلة أدّى بالحديثي إلى الثورة على نفسه أولاً وعلى الدين ثانياً فراح يجوب بيوت الدعارة لسد رغبته الجنسية والبارات احتجاجاً على جميع الأعراف الاجتماعية والدينية التي تنبذ ذلك ، وهذا نوع من أنواع الاغتراب الديني والاجتماعي. "بيوتا كانت كوّة" صغيرة في جدار الخوف، لم أفكر إلا بشيء واحد: أنا لست في دهاليز الجبال، يرعبني الدخول في الجبل، أو الأماكن المغلقة، أخشى الموت، وأكثر ما أخشاه اختناقا، يجعلك تشعر أنك تقف أمام المرآة تنظر لنفسك كيف تموت ولا تستطيع فعل شيء"[٥٨]، لم ينحصر الاغتراب في العلاقات الاجتماعية أو الدينية فقط، ولم تسلم أماكن الطفولة من الغربة، بل انه تطور ليشمل الاغتراب المكاني إذ يتحول الإحساس بالمكان من الألفة إلى العداء، ومن الحنين إلى الموطن الأول إلى الهروب منه خوفا من كم ما هو قديم ويثير الذكريات التي لا وجود لها إلا في مخيلة الكاتب، لان هذه الذكريات ربما تكون سببا للغربة خصوصاً في مرحلة الطفولة وما لهذه المرحلة من اثار في بناء الشخصية وهذا ما نراه قي قوله "أول شيء فعلتْه عيني هو النظر إلى ما وراء الأسيجة المحيطة بي، أيا ما كان هناك فلن يستطيع ان يلجم صوت ذكراه وهي تجلس مستندة بظهرها إلى الجدار بعدما أرهقتها قهقهات الطريق، لا شان لي بها، انا بحاجة إلى قطرة

تُبقي زهرة الأمس ندية في ذاكرتي، نظراتي التي تتلفت خلسة شِباكٌ أرميها لأصطاد لمحة من الحياة أقاوم بها الموت المتغلغل في مسامات روحي"، إذ كانت مدينة المحمودية مهد الطفولة سببا للغربة المكانية نتيجة لما كانت عليه من عدم الأمان وضعف الحالة المادية إضافة إلى موت أخيه في الحرب والذي كان متعلقا به كثيرا، وعدم قدرته على التكيف وواقع الحال، فتمرد على هذا الواقع هربا من كل ما يثير الذكريات، هام في بغداد (كراج العلاوي) لأنه لم يكن من أهل بغداد ولا يعرف أحدا يكون له سندا فيها وامتهن مهن لم تخطر له في بال، كما حاول سد الفراغ في الانخراط في التظاهرات معلنا النفير العام في نفسه لإثبات الانا الغائبة والتشبث بالغربة المكانية، كما حاول سد الفراغ في الانخراط في التظاهرات معلنا النفير العام في نفسه لإثبات الانا الغائبة والتشبث بالغربة المكانية.

المبحث الثالث

ألفاظ الاغتراب المباشرة في روايات الحديثي

البيئة التي عاش بكنفها الحديثي كان لها تأثيرا كبيرا في بناء شخصيته، وبالتالي التناقض الكبير بين الشخصية الواقعية والخيالية، ولهذه البيئة وما رافقها من حرمان وكمد خصوصاً في مرحلة الطفولة أثرا في بروز الاغتراب السلبي والذي أنتج إبداعاً أدبياً لدى الحديثي، وهي من أهمّ الأسباب التي قادته إلى التمرد والعصيان والثورة على الموروث الاجتماعي والسياسي والديني، وما تركت في نفسه من ذكريات وكوابيس محاولا محوها من سجل حياته إلى الابد، لذا اختار الاعتكاف والعزلة واللجوء إلى عالم خاص لا يخضع لاي قيد من القيود السابقة.

١- ألفاظ الغربة

المتتبع لروايات الحديثي يجد ألفاظاً متنوعة نابعة من وجدانه تدل على مدى توغل الغربة والاغتراب بجميع انواعه واشكاله، وما تترجم من أوجاعه وآلامه وثورته على الواقع المفروض عليه، ومن الملاحظ وجود مراحل انتقالية لدى بعض الكتاب فيتحول من حال إلى حال على خلاف الحديثي الذي لازمته الغربة والاغتراب في جميع مراحل حياته، حتى أصبح جزءاً منها يألفها وتالفه، وله معها علاقة وطيدة، يصورها بدقة عالية غير مبالٍ بفرديتها أو جماعيتها، فلا يتحير في وصفها بحكم الخبرة الطويلة معها فيقول : "وماذا جنت البشرية من استخدام عقلها لآلاف السنين.. حروب.. دمار.. عُقَد.. خوف.. مجاعات.. وظيفة العقل هي غلق الثقوب التي فيها جمالنا وحياتنا.. لا تخدعنّكم المسميات

الوهمية التي تلبّسها العقل ليغريكم بها.. مجتمع.. دين.. فكر.. أتيكيت.. كلّها تصبّ في مستنقع واحد، هو تكبيل الجسد.. قتل الجسد.. موت الجسد.. كانت هذه الكلمات وقودا لأستمر في ركضي"[٥٩]، الملاحظ كثرة الألفاظ التي تختص بظاهرة الاغتراب وتعددها مثلاً "فلم يزل شابّا دهمته الغربة الاجتماعية، حين دخل المدينة حذار من مجهول يخشاه، فدروب المدينة كما رآها أفعى ولكنّه مع ذلك لم يتردّد من ارتيادها على الرغم ممّا عرفَ من زيفها وهجنتها"[٦٠]، وكأنها نذير شؤم يلاحقه ولا يمكنه الفرار منه.

الألفاظ التي تعبر عن غربة عميقة جدا متأصلة في النفس تعبر عن ألم حاد وهنا يمكن الإشارة إلى أولى مراحل الاغتراب ومن أهم أعراضها نفرة المجتمع ثم نفرة المدينة التي كانت تمثل نقطة ضوء في حياته ف "قمّة النفور من كل ما يسمى مدينة"[٦١]، يبالغ الحديثي برصف مفردات الغربة بشتى الألفاظ ليصل إلى أعلى درجات الرفض والنفور النفسي والذاتي للمجتمع والمدينة "ومن الطبيعي ان تتشابه تجارب الشعراء الريفيّين المهاجرين إلى المدن العربيّة في طبيعة الصدمة – إن حدثت – فهي دائما تعبيرٌ عن الاغتراب النفسي والاجتماعي الذي أصابهم، ولكنّها تتفاوت في العمق والمدى، فهي حادّة ومزمنة عند السّياب، وهي مبهمة إلا انها واقعية الأسباب"[٦٢]، يحاول الحديثي إيصال حالته النفسية المتأزمة وشعوره بالغربة المكانية تجاه المدينة لما فيها من اختلاف جغرافي وسكاني بينها وبين مدينته الأمّ عبر لغة مبسطة لإبراز حالة الحزن والغربة لأنّ "التجربة الحزينة، تتمثّل مشاعر الغربة والضياع والتمزّق، فاستجابة شاعرنا المعاصر لهذه المحاور إذن أمر طبيعي تدفعه إليه طبيعة الموقف العام، طبيعة تجربة الحزن"[٦٣]، مما تقدم نصل إلى حقيقية مفادها إنّ الحديثي استطاع التعامل مع عنصري الزمان والمكان بفلسفة خاصة لربطهما مع الذات الإنسانية عبر الكثير من كلمات الغربة.

النتائج

– من يؤمن بالوجودية يغترب نفسيا وروحيا وعقليا لان الوجودية لها مبادئ خاصة تحارب الواقع الاجتماعي العراقي لذا عاش الحديثي غربة متكاملة الجوانب.

– الغربة في روايات الحديثي ناتجة عن أزمات نفسية سببها الصراع السياسي والاجتماعي المفروض عليه.

– وجود صراع ما بين الانا الرافضة للقمع الواقعي والوجودي.

– رفضه للموت المخروم والذي له وجود ملموس إذ عبر عنه بنظرة خاصة اتسمت بالجزع ومحاولة تغيير الواقع.

– حدة الألفاظ المعبرة عن التمرد والقمع والغربة بمختلف أنواعها المكانية والزمانية والوجودية.

الهوامش:

(١) بعض قضايا الفكر العربي المعاصر: جلال فاروق الشريف: ٤٣.

(٢) يُنظر: نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع: علي الشتا، مؤسسة الشباب الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣: ٢٠-٢٢.

(٣) يُنظر: جبرا براهيم جبرا دراسة في فنه القصصي: علي احمد العوالمة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٨٢: ١١.

(٤) يُنظر: الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع: حليم بركات، ط١، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦: ٣٧.

(٥) مقابلة خاصة.

(٦) لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ: ٦٣٩/١.

(٧) منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه النهاية في غريب الحديث والأثر: أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة: ٣.

(٨) يُنظر: الغربة في الشعر العراقي في القرن العشرين: فليح كريم الركابي، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، المركز العلمي العراقي، بغداد، ٢٠١٣: ٩٤.

(٩) يُنظر: ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر: محمد احمد عزب، إشراف احمد الشرباصي، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٧٦: ٣٢.

(١٠) ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر: محمد احمد عزب، إشراف احمد الشرباصي، رسالة دكتوراه، كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، ١٩٧٦: ٣٢.

(١١) سايكولوجية الإبداع في الفن والأدب: يوسف ميخائيل أسعد، مشروع النشر المشترك العراقية المصرية، آفاق عربية، الهيأة المصرية للكتاب: ١٧.

(١٢) الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب: احمد عودة: ١٢.

(١٣) يُنظر: الاغتراب في شعر نازك الملائكة: ساجده عبد الكريم خلف، دار غيداء الأردن، ٢٠١٧: ٧.

(١٤) الزمن في شعر الرّواد، سلام الأوسي، رسالة ماجستير، كلية التربية، ابن رشد، ١٩٩٠، جامعة بغداد:٥٤.

(١٥) الزّمن في شعر الرّواد: سلام الأوسي: ٥.

(١٦) الوجودية مذهب إنساني: جان بول سارتر: ١٢.

(١٧) الوجودية مذهب إنساني: جان بول سارتر: ١٤.

(١٨) الوجودية: جون ماكوري :٣٧.

(١٩) الاغتراب في شعر احمد الصافي النجفي: ٨.

(٢٠) تطوّر الشعر العربي الحديث في العراق: علي عباس علوان: ٥٦٦.

(٢١) تطوّر الشعر العربي الحديث في العراق: علي عباس علوان: ٥٦٦.

(٢٢) في النقد الادبي: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر: ١.

(٢٣) ثقوب عارية: علي الحديثي، منشورات دار شهريار للنشر والتوزيع، البصرة، العراق، ٢٠١٦: ٤٧.

(٢٤) سيبار مدينة بلا طيور: علي الحديثي، دار فضاءات للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ٢٠٢٢: ١٧.

(٢٥) وجه في كرة: علي الحديثي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ٢٠١٩: ٦٩.

(٢٦) المصدر نفسه: ٦٩.

(٢٧) المصدر نفسه: ١٩.

(٢٨) الوجود والعدم: جون بول سارتر، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، ط١، منشورات دار الآداب، بيروت، ١٩٦٦: ٥٩٠.

(٢٩) ثقوب عارية: ٥٤.

[٣٠] ارفعوا صوت التلفاز: علي الحديثي، دار الرابطة للنشر والتوزيع، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ٢٠١٧: ٢.

[٣١] سيبار مدينة بلا طيور: ١٠٩.

[٣٢] يُنظر: إشكالية المكان في النصّ الأدبي ، ياسين نصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ،ط١، ١٩٨٦م : ١٥٥

[٣٣] يُنظر: المكان في شعر الشريف الرضي ، زينب عبد الكريم الخفاجي ، رسالة ماجستير ، جامعة الموصل ، كلية التربية للبنات ، ٢٠٠٢م : ١٥٥ .

[٣٤] الاغتراب في الشعر العراقي: ١٧.

[٣٥] ثقوب عارية: ٤٦.

[٣٦] ذاكرأة: علي الحديثي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، ٢٠١٩: ١٢٠.

[٣٧] ارفعوا صوت التلفاز: ٥.

[٣٨] وجه في كرة: ٢.

[٣٩] سيبار مدينة بلا طيور: ١٠.

[٤٠] ظواهر التمرّد في الشعر العربي المعاصر: ٨٩.

[٤١] ثقوب عارية: ١٦.

[٤٢] دراسات في الشعر العربي المعاصر: شوقي ضيف: ١٩١.

[٤٣] الذات في مواجهة العالم: أميرة علي الزهراني، دار الحكمة للنشر، الأردن:٧٣.

[٤٤] الإبداع وتذوق الجمال: قاسم حسين صالح، بغداد: ٣١.

[٤٥] وجه في كرة: ٥.

[٤٦] ثقوب عارية: ٤٢.

[٤٧] وجه في كرة: ٦.

[٤٨] ثقوب عارية ٤٨.

[٤٩] المصدر نفسه: ٤٠.

[٥٠] الزمن في شعر الرواد، سلام الأوسي: ١٦٩.

[٥١] الزمن في شعر الرواد، سلام الاوسي: ١٦٩.

[٥٢] ذاكرأة: ٤٣.

[٥٣] المصدر مفسه: ٤٣.

[٥٤] المصدر نفسه: ١٢٠.

[٥٥] ذاكرأة: ٨٢.

[٥٦] يُنظر: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: يوسف خليف، دار المعارف، مصر: ٤٣.

[٥٧] يُنظر: الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد: محمد راضي جعفر، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩: ٦.

[٥٨] ذكرأة: ٢١.

[٥٩] ثقوب عارية: ١٥.

[٦٠] الاغتراب في الشعر العراقي: محمد راضي جعفر: ٣٩.

[٦١] اتجاهات الشعر العربي المعاصر: احسان عباس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨: ١١٧.

[٦٢] اتجاهات الشعر العربي المعاصر: ١.

[٦٣] الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: عز الدين اسماعيل، ط٣، دار العودة، بيروت، ١٩٨١: ٣٥٧.

المصادر والمراجع:

١- الإبداع وتذوق الجمال: قاسم حسين صالح، دار الفراهيدي، بغداد: ١٩٩٨.

٢- اتجاهات الشعر العربي المعاصر: إحسان عباس، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨.

٣- إشكالية المكان في النصّ الأدبي، ياسين نصير، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦.

٤- الاغتراب في الثقافة العربية، متاهات الإنسان بين الحلم والواقع: حليم بركات، ط١، مركز دراسة الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.

٥- الاغتراب في الشعر العراقي المعاصر مرحلة الرواد: محمد راضي جعفر، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٩.

٦- الاغتراب في شعر احمد الصافي النجفي: وفاء عبد الأمير هادي الصافي، رسالة ماجستير، إشراف، سعيد عدنان المحنة، كلية التربية للبنات، جامعة الكوفة، ٢٠٠٥.

٧- الاغتراب في شعر بدر شاكر السياب: احمد عودة الله الشقيرات، دار عمار للنشر والتوزيع، ١٩٩٦.

٨- الاغتراب في شعر نازك الملائكة: ساجده عبد الكريم خلف، دار غيداء الأردن، ٢٠١٧ .

٩- بعض قضايا الفكر العربي المعاصر: جلال فاروق الشريف، ط٢، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ٢٠٠٤.

١٠- تطوّر الشعر العربي الحديث في العراق: علي عباس علوان، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٩٥.

١١- جبرا براهيم جبرا دراسة في فنه القصصي: علي احمد العوالمة، رسالة ماجستير، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، ١٩٨٢.

١٢- دراسات في الشعر العربي المعاصر: شوقي ضيف، ط٥، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٣.

١٣- الذات في مواجهة العالم: أميرة علي الزهراني، دار الحكمة للنشر، الأردن.

١٤- الزّمن في شعر الرّواد: سلام الأوسي، دار المدينة الفاضلة للطباعة والنشر، الإسكندرية، مصر، ٢٠١٢.

١٥- سايكولوجية الإبداع في الفن والأدب: يوسف ميخائيل أسعد، مشروع النشر المشترك العراقية المصرية، آفاق عربية، الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٨٦.

١٦- الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية: عز الدين إسماعيل، ط٣، دار العودة، بيروت، ١٩٨١.

١٧- الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي: يوسف خليف، ط٤، دار المعارف، مصر، ٢٠١٨.

١٨- ظواهر التمرد في الشعر العربي المعاصر، محمد احمد عزب، رسالة دكتوراه، إشراف، احمد الشرباصي كلية اللغة العربية، قسم الأدب والنقد، جامعة الأزهر، ١٩٧٦.

١٩- الغربة في الشعر العراقي في القرن العشرين: فليح كريم الركابي، دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، المركز العلمي العراقي، بغداد، ٢٠١٣.

٢٠- في النقد الأدبي: شوقي ضيف، ط٩، دار المعارف، القاهرة، مصر، ١٩٦٢ .

٢١- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى، ط٣، دار صادر، بيروت، ١٤١٤ هـ.

٢٢- المكان في شعر الشريف الرضي، دراسة فنية: زينب عبد الكريم الخفاجي، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٢.

٢٣- منهج ابن الأثير الجزري في مصنفه النهاية في غريب الحديث والأثر: أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٢٤- نظرية الاغتراب من منظور علم الاجتماع: علي الشتا، مؤسسة الشباب الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣.

٢٥- الوجود والعدم: جون بول سارتر، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، ط١، منشورات دار الآداب، بيروت، ١٩٦٦.

٢٦- الوجودية مذهب إنساني: جان بول سارتر، ترجمة، عبد المنعم الحنفي، دار ومكتبة الحياة، ٢٠١٧ .

مجلة الدراسات المستدامة
JOSS
Journal of Sustainable Studies